

الله ! « ولا دعانا أحد للأكل بل
فتح باب ودق جرس فقام من
أراد أن يقوم إلى غرفة المائدة ،
وانتظر في غرفة الجلوس من أراد
أن ينتظر
وكان صاحب المنزل كأنه
أحد الزوار ، والزوار كأنهم في

بيوتهم ، فلا حجل ولا احتشام ولا انتظار للترحيب .
وكانت زوجة صاحب المنزل موجودة بيننا كأنها
أحد الرجال ، وكأنه لا شأن لها بأعمال الطباخين
ونظام الوليمة : وكل الذي وجدناه من مظاهر
الترحيب هو النظر إلينا والابتسام . وكان بيننا كثير
من السيدات لو أن علي وجه إحداهن نقاباً لتدلت
غراماً بها ، ولكن لسفورهن ما كنت أفكر في
أنهن نساء

وقد بدأت المحادثة عما إذا كانت الشمس قد
ظهرت في هذا اليوم أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها
ظهرت ، واشتد الخلاف على مدة ظهورها ، فقال
البعض إنها خمس دقائق وقال آخرون بل عشر

وكان التسكّم في هذا الموضوع موجهاً الالتفات
إلينا لما يظنه البعض من أن الفرس يبعدون الشمس ،
وسألنا زوجة الوزير عن ذلك فأجابها السفير :
« إن بلادكم ليست في حاجة إلى الشمس ما دام
لنساتكم هذه الوجوه المشرقة . فلما ترجم هذا القول
إلى اللغة الانكليزية قوبل بالاستحسان العام واعتبر
فكاهة لطيفة

وقال الوزير : « ولكن إذا عبدتم هذه الشمس
كما تعبّدون الشمس في بلادكم ، فإننا سنفكر في إنشاء

حَاجِي يَا بَا فِي كَلْتَل

تأليف جيمز موير
بقلو الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل السابع والعشرون

أعضاء السفارة يحضرون رليمة

في اليوم التالي لافتتاح البرلمان جاء المترجم إلى
السفير وقال له : « هذه خمس دعوات لتناول العشاء »
فقال السفير : الله الله ! من الذي يستطيع أن
يأكل خمس صرّات في ليلة واحدة ؟

قال المترجم : « ليس من الضروري أن تأكل
بتاناً بل تحضر الاجتماع دون أن تتناول الطعام ؛ وهذا
مسموح به في عوائدنا »

قال السفير : « هبني لا آكل شيئاً ، ولكن
حضور خمس دعوات يستغرق جانباً عظيماً من الليل
فكيف ذلك ؟ إننا فارسيون ننام بعد صلاة العشاء
ونستيقظ قبل أذان الفجر »

فقال المترجم : « ما دمت مقبلاً بيننا فانك
ستعتاد عاداتنا ؛ ونحن لانكاد نفرق بين الليل وبين
النهار في هذا الفصل من العام »

فقبل السفير وذهب معه ومع المترجم . وكانت
الوليمة الأولى في قصر وزير ، وقد ايسر السفير كمادته
في الحفلات ووضع الريشة على قلبه والخنجر في
حزامه وتقلد السيف المجوهر . وابست كذلك
ما يلائم هذه الحفلة من الثياب

وصلنا إلى قصر الوزير فلم يقل لنا أحد « بامم

وقد شجعتني التبسط في الكلام أثناء ما جرى من الحديث على أن أتكلم باللغة الانكليزية فكان الجميع ينظرون إلي ويتسمعون ولا أعرف هل فهموا ما كنت أقول أم لم يفهموه

الفصل الثامن والعشرون

المناصرة

لما انتهت الوليمة الأولى ذهبنا مع المترجم إلى قصر آخر وهو الذي فيه الحفلة الثانية ، وهي حفلة راقصة . وقد جلس السفير إلى جانب زوجة اللورد وجلس كل رجل بجانب سيدة . وسأل السفير المترجم : لماذا يحملون حفلاتهم

بالليل ؟ أليس في النهار متسع من الوقت لذلك ؟ فقال المترجم : إن الوقت لا يتسع الآن للشرح . فسكت السفير وقد كنت وإياه في أشد الحاجة للنوم . ولولا احترام الموقف لأدركنا النعاس ونحن جالسون وإني أشك كل الشك في تصديق الناس إياي لو وصفت لهم ما رأيته في هذه الحفلة

لقد كان النساء يتحلين من الجواهر بما لا يوجد مثله عند الشام . وكانت أجمل فارسية تعد دميعة بالقياس إلى من رأيتهن من الحسان . ولئن كنا نصف أجياد السيدات وعميونهن بعيون الفزلان وأجيادها ، فإن هذا التشبيه يزرى بالجمال الذي رأيناه ، والذي ليس من حقه أن يشبه بشيء ما . وقلت في نفسي إذا كان في الدنيا لذة وسرور فهما في المرقص دون غيره . وإذا كان النساء جديرات بالحب فهن نساء هذا البلد السافرات لا نساء فارس المحتجبات

هكذا كان مجال تفكيرى . ويظهر أنه كان

مصنع للبراقع في لانكشير ونجمل في كل بيت قسماً للحريم

وعلى أثر ذلك تبادل الحاضرون المزاح والفكاهة في هذا الموضوع . وقد دلنا ذلك على شيء في الخلق الانكليزي لم نكن نتوقعه لأن هذه الشفاء المطبقة التي لا تكاد أن تفتح للكلام برهنت على أن دونها روحاً فكاهية حلوة

وقد حضرت العشاء فلم أجد متسعاً من الوقت للتفكير فيما إذا كان اللحم لحم حيوان مذبح أو ميت ، بل أكلت كل ما وقمت يدي عليه . ورأيت أمامي أنواعاً من البَيْد ما راعيت في الامتناع عنها إلا وجود السفير

ولقد خطر لي في أثناء الطعام أن هذا اللحم لحم خنزير . ولكن يدي لم تقف عن تناوله بل قلت باسم الله ثم التهمت

وكان السفير أكثر حذقاً مني في استعمال الشوكة والسكين وأشد إقبالاً على تناول الطعام . ولقد أخطأت بحكم العادة مرتين فاسترعت لسوء الحظ أنظار من حولى . أما إحدى الغلطتين فاني قاسمت جارى خبزه ؛ وأما الغلطة الثانية فاني شربت من كوبه . وكدت آخذ شيئاً من الطعام بأصابعي ولكنني تماكنت نفسي قبل الوقوع في هذه الغلطة ولما انتهى الأكل وقف السيدات دون الرجال وبقي هؤلاء وحدهم على المائدة ، فقلت للمترجم : إن هذا هو الشيء الوحيد الذي وجدناه قريباً من عوائدنا ولا بد أن يكون مستعاراً من الاسلام

فقال المترجم : إن النساء يقمن قبل آخر الوليمة ليكون الرجال أكثر حرية في شرب البَيْد وفي المحادثة

أكثر من احتفائهم بالأمير وبظهر له الأمير نفسه
أكبر احترام

قلت لمحدثي : « أليس هذا أميراً أيضاً ؟ إننا
ممشر الفارسيين نلتفت كل الالتفات إلى مظاهر
الوجاهة فلا يفوتنا شيء منها »

فقال : « لقد أصبت ! إن هذا رجل كبير
الأهمية عندنا وإن لم يكن أميراً . وقد نشأ جندياً
بسيطاً وارتقى بنشاطه في صفوف الجيش فهو يمدل
عندكم الملقيين بلقب « غازي »

قلت : « ولكنني أراه يسكب الشاي في فنجان
امرأة عجوز وذلك مألوس بقعله عندنا غير الخدم . إن
أحد القواد عندنا لو فعل مثل ذلك لعزله الشاه في
اليوم التالي لأنه استخف بكرامة نفسه »

فابتسم وقال : « دعنا من ذلك الآن وانظر
إلى المحاصرة فهذا شيء جديد عليك » والمحاصرة
أن يشتبك كل رجل مع سيدة بيديه وبرجليه ويدور
على نغمة ما . وليس في بلادنا من يرقص غير
الأجيرات . ولكن هؤلاء أعلى طبقة من الناس
ولا يرقصون إلا رغبة في السرور

فلما أبدت له هذه الملاحظة قال إن المأجورات
على الرقص يوجدن هنا في مسارح عامة وستراهن
في يوم من الأيام

قلت : « أليس عندكم من يرى الرقص غير لائق
أو يحاول إبطال هذه العادة ؟ »

فقال : « هذه عادة حديثة وقد وجدت مقاومة
في بدء ظهورها . ولكن عندنا ما يقال له « المودة »
وهي أقوى من شاهكم ألف مرة وأكثر استبداداً .
وسبب التعلق بالمودة هو أن رغبتنا في التقدم لا تجد
حداً لتقف عنده »

صرتما على وجهي ؛ فإن أحد الجالسين حادثنى باللغة
الفارسية وسألني ألسنت أفكر في المنظر الذي أراه ؟
فقلت : « بلى ، ولكنني أظن أن السيدات الانكليزيات
يصرن أجمل مما هن الآن إذا وضمن على وجوههن
البراقع ، فلماذا لا تفرضون عليهن ذلك ؟ »

فابتسم وقال : « قد يفعلن ذلك في يوم من الأيام
إذا ظهر لمن أنه يبرز جمالهن . ولكن كل إنسان
في هذه البلاد حر في وجهه بفعل به ما يشاء »

قلت : « ولكن المجائر قبيحات جداً ولست
أعرف السبب في ذلك . فهل عند شاهكم طريقة
للتخلص منهن ؟ لقد كان الشاه عباس يقتل الخصيان
إذا لم يموتوا من تلقاء أنفسهم في الوقت المناسب »

فضحك محدثي وقال : « إن قتل امرأة عجوز
قد يؤدي إلى نشوب ثورة ، وليس من الممكن أن
أن يقوم بيننا ملك كالشاه عباس »

ثم أخذ يشرح لي بعض عادات بلاده التي لم
تكن لدى فكرة عنها

وأشار إلى أحد الجالسين فقال إنه ولي العهد .
وهو كسائر الموجودين يتحدث ببساطة ولا يميزه
الناس التفاتاً خاصاً سوى أنهم يحرسون بقدر
الامكان على ألا يوليه أحد ظهره

قلت : « ألم تقدم إليه الهدايا عند مجيئه ؟
فقال : « لا أعرف أنه أخذ شيئاً غير ما شربه
من اللبن والشاي »

قلت : « هذا شيء غريب ! إن الملك وأبناءه
ليس لهم أقل امتياز في هذه البلاد ، ولكن في بلادنا
بعد الجلوس في مكان واحد مع أحد الأمراء نعمة
كبيرة »

وجدت بين الجالسين رجلاً يحتفي به الجميع

نخلق لحانا وشواربنا . قل لي ما الذي أفعل ؟ تكلم يا حاجي بابا »

قلت : « ما الذي أستطيع أن أقول ؟ إنها جميلة حقاً . ولكن كيف عثرت عليها ؟ »

فقال : « إن شعورها يحوى مثل شعورى نحوها وقد نظرت إليها للمرة الأولى في مجلس النواب . ولما تبادلنا النظرات جاءت بها أمها إلى وقد تمكن حينها مما الذي أفعل ؟ »

قلت : « أرى أن تكتب إليها أبياتاً من الشعر ، فإن الحب بغير شعر أمر لن يكون »

قال السفير : « نعم يا حاجي بابا . ولقد قلت أبياتاً من الشعر منذ رأيته ، ولكن من الذي يستطيع أن يفهم شعري الفارسي ؟ ولقد حاول المترجم أن يشرح لها ولأمها ولبن رأيته حولنا هذه الأبيات فبدل أن يظربوا أخذوا يضحكون . وهذا هو معنى مطلع القصيدة

« يانسيم الحب قل للمروحة التي تحركك لماذا تطردنا نحن إلى الصحارى والجبال ؟ »

قلت : « إذا كان هذا الشعر لا يملك قلبها فإن قلبها يستحيل إذن أن يملك . وأرى على أية حال أن تبعث إليها بالهدايا من الشيلان والجواهر وأن تكتب إليها خطاباً بالمداد الأحمر »

فقال : « هذه بلاد شديدة الخطر على رجل مسلم . إن عيون نساءها تقتل عينا ويساراً ولأمل في الزواج لغير المسيحي »

ومن ذلك الوقت لم يصطحبني السفير ولم يصطحب أى رجل من أعضاء السفارة إلى الحفلات التي يحضرها سيدات من الانكليز . ولعل ذلك خوفاً من نقل أخباره إلى الشاه ، أو لعله لا يريد أن تشهد

كان الراقصون إلى الآن من الشبان ولكنني رأيت فجأة ما هالني وأدهشني

فقلت لجاري : « ألا ترى ؟ هذا رئيس وزارتكم يرقص ! »

فابتسم وقال : « ماذا يهولك من ذلك ؟ إن ملكنا يرقص أيضاً وكذلك المفتي عندنا ورجال الكنيسة والحربية والبحرية والقضاة

قلت : « أقسم برأس الحسين لو أن الشاه علم أن أحد وزرائه يرقص لضربه على قدميه في الطريق العام إن لم يفعل به أكثر من ذلك »

في كل هذه المدة كان السفير غائباً عن نظري وأخيراً وجدته بين جماعة من النساء . وكان أكبر اهتمامه بواحدة منهن جالسة أمامه وهو لا يريد الانصراف عنها ولا الكف عن محادثتها . وكانت نظراته إليها كمنظرات المجنون إلى ليلاه

ولما انتهت السهرة عدت مع السفير في عربة إلى دار السفارة ولم نذهب إلى سائر الولائم لأن الساعة كانت متأخرة من الليل

الفصل التاسع والعشرون

السفير يحب

لما كنا في العربة لاحظت أن السفير لا يطبق كتمان مابه من اللواعج . ولم يطل صمته حتى قال : « أقسم يا حاجي بابا أن فؤادي قد سلب ! هل رأيت مثل هذه العيون والثغور والأجساد ؟ هل رأيت شعوراً مثل هذا الشعور ؟ هل رأيت جلوداً أرق من هذه الجلود ؟ إن فؤادي يكاد يحترق ولكن ما الفائدة من هذا القول ؟ إننا فارسيون وهؤلاء النصاري لا يزوجوننا من بناتهم حتى ولو قبلنا أن

ضحك حبيته وأحبابها منه ، أو لعله خشي أن نزاحه في حبه

ومهما يكن غرضه فإنه صار لا يصطحب غير المترجم . وكانا يترددان على قصر كبير يكاد يكون أكبر من قصر الشاه . وهذا القصر لا حياة الموسيقى والرقص ؛ وقد ذهبت معهما مرة إليه لأنه من الأماكن العامة التي يستطيع أن يزورها كل إنسان مقابل أجر معين ؛ ويطلقون على هذا القصر اسم «الاوربا» ؛ وتكوينه من الداخل عجيب جداً ، ففيه أما كن كخلايا النحل ضيقة يجلس فيها الوجهاء ؛ أما المكان الفسيح في صحن البناء ففيه كراسي يجلس عليها العامة

جلسنا في خلية من هذه الخلايا التي يختلط فيها الرجال بالنساء . وكان عدد كبير من الناس لا نرى إلا رؤوسهم ، والمكان مضاء بأنوار أسطع من التي في معرض النور بقصر الشاه

واستقبل الكل منصة عالية كالتى يجلس عليها القضاة ويسمونها المسرح . وصدحت الموسيقى فلم تلام أصواتها أذواقنا لأنها تخرج ماث من الأصوات المختلفة ، يختلط بعضها ببعض فيجمل اللحن شديد الاضطراب ، ولكن الانكليزيطربون له كما نظرب نحن لسماح أغانيتنا الشجية

وعلى حين فجأة ارتفع ستار عظيم كان يغطي هذه المنصة فرأينا من المناظر ما يميز القلم عن وصفه مئات رواية محزنة كدنا نبكي عند مشاهدتها ، ثم تلاها رقص وغناء لم يعجبنا في أول الأمر لقبح الطريقة ، ولكنه أطربنا بعد قليل لرخامة الأصوات . أما الرقص فإنه مدهش إلى غير حد ، وأقسم لو شاهدته الشاه لنزل مهرولاً عن عرشه فجاء أمام هؤلاء الحور اللواتي لا يشبهن إلا حور الجنة

وقد عجزنا عن مفاخرة الانكليز في هذا الشأن لأنه ليس لدينا موسيقيون أو مغنون نفتخر بهم وإن كان عندنا شيء من الفناء والموسيقى . أما التمثيل فهو إبداع ليس لنا فيه أقل نصيب

وقد استمر السفير يذهب إلى هذا المكان حتى توم بمض الانكليز أنه مسرور من كل عوائدهم وطلبوا إليه أن يسمي في بلاده إلى رفع الحجاب عن السيدات وتمويد النساء والرجال الفارسيين عوائد الفرنجستان . فعند ذلك غضب السفير وكف عن الذهاب إلى هذا المسرح إظهاراً لاقتناعه بفضل عاداتنا الشرقية . ولما جرى الحديث بينه وبين المترجم عن الملاهي قال المترجم إنها ضرورية لانعاش الناس وتجديد قواهم

فقال السفير : « يظهر أن الشعب الانكليزي من أبلد الشعوب لأنه محتاج دائماً إلى التنشيط والانعاش ، أما نحن في إيران فحسبنا من ذلك النيروز وحفلة ذكرى الحسين

وحضرنا بعض حفلات التمثيل ، وبالرغم من أننا لم نفهم ما يقال على المسرح فقد كانت مجرد الرؤية كافية لفهمنا المعنى ، واقنعنا بأن هذا هو شعب المجانين . وحمدنا الله على العقل والحكمة اللذين وهبهما للشعب الفارسي

الفصل الثلاثون

ماجى بابا بنكلم الانكليزية

بدأت أخطب الناس باللغة الانكليزية التي كان فهمي لا أسمعه منها أكبر من استعدادي للتكلم بها . ولقد وجدت كثيراً من كلامي لا يفهم بسهولة ، ووجدت ذاكرتي تخونني في حفظ بعض الكلمات

قال السفير : « إذن هذه رقة في طباعكم ! ألا تمود إلى ذكر هذه الغلطة ؟ هل قلت إنها تتجاهلها ؟ هذه هي نهاية التهذيب . إننا مهذبون في فارس ولكننا لم نبلغ بمد هذه الدرجة »

فقال المترجم : « إن أصل معنى الكلمة عادي ، ولكن الكناية معروفة في انكلترا كما هي معروفة عند الفارسيين ؛ وفي كل يوم تتجدد كلمات يكتن بها عن المعاني التي أصبحت كنياتها القديمة مبتذلة قال السفير : « على ذكر الكنايات أسألك عن

الكلمة التي يكتن بها عن كلمة زوجة ؟ » فقال المترجم : « هذه كلمة لا تحتاج إلى كناية » قال السفير : « ما أبعد الأذواق بين الأمم المختلفة ! هل يجرؤ أحدكم على سؤال الآخر عن زوجته دون أن يكتن عنها ؟ ألا تشير هذه الكلمة إلى ألف معنى من المعاني المبتذلة ؟ إننا لا نقول لأحد كيف زوجته ولكننا نقول كيف بيتكم » قال المترجم : « هذا الاصطلاح عندكم له ما يبرره لأنه ليس لأحدكم زوجة واحدة بل زوجات متعدداً . أما نحن فسادام المرء لا يتزوج إلا من واحدة فقط فلا معنى لهذا التعبير الجامع

قال السفير : « أليس في لغتكم تعبير يبتدىء به كل شيء مثل قولنا « باسم الله » فقال المترجم : « لا »

قال السفير : « يظهر إذن أنكم من فصيلة كردية ، فإن الأكراد لا يبدأون باسم الله . ونحن في فارس نسميهم عباد الشيطان من أجل هذا السبب فقال المترجم : « إن الألفاظ التي يطول تكرارها تفقد وقعها . وفي اللغات ألفاظ كثيرة يجب أن تصان من الابتدال

فإنني أظن أنني نطقت بها كما سمعتها والحقيقة أنني حرقتها تحريقاً عظيماً

وكذلك كان السفير يحاول الكلام باللغة الانكليزية مع حبيسته ومع الوسط الذي بلغاها فيه . وفي يوم من الأيام أقبل على « منزجما » وهو يصيح : « هات القاموس : يظهر أن الذين كانوا على ظهر السفينة خدعوني فأفهموني معنى كلمة على غير صحة . وقد نطقت بها أمام السيدات فضحككن وأخجلتنى . والله لو رأيت هؤلاء البحارة لمزقت جلودهم

قلت له : « ما هي هذه الكلمة وما مناسبتها ؟ » فقال : « لقد سألتني الفتاة عن زوجتي في فارس فوصفتها لها وتشجعت على الكلام باللغة الانكليزية ، فلما نطقت بأحدى هذه الكلمات حلفت هي ومن حولها ثم تهامسن وتضاحكن وشمرت بالحجل لأنهن لم يطلعنني على غلطتي

وفي هذه اللحظة جاء المترجم فسر دنا عليه الخبر فابتسم وقال للسفير : هذه الكلمة من أغلظ ما في لغتنا من الكلمات ، ولا بد أن تكون تسقطها من البحارة أو السابلة . فألح السفير في البحث عنها في القاموس . وقد وجدناها في وجدلها معنى مناسباً فاطمأن وقال : يظهر أن ما يسميه المترجم (بالودة) يعبرى الكلمات عندهم أيضاً فما يجوز عندهم التكلم به اليوم لا يجوز في الغد

وعزم على أن يكتب لتلك الفتاة فيخبرها بأنه وجد الكلمة في القاموس

ولكن المترجم نفي ضرورة ذلك وقال : إن فطنتها استدلتها على أن السفير غير متعمد للخطأ . وإن الكتابة إليها قد تضطرها إلى الرد مع أنها تؤثر بالطبع أن تتجاهل حدوث هذه الغلطة »

جلوس القرفصاء وكثير زوارنا خصوصاً من السيدات اللواتي كن يستصحبن إلينا أزواجهن وإخوتهن . وكانت الواحدة منهن تأتي وحدها في بعض الأحيان وقد توطدت الصداقة بين السفير وبين الكثيرات منهن وكثرت هداياه إليهن . ولكن حبه ظل مقتصرأ على واحدة منهن هي الأولى التي تقدم ذكرها

وفي يوم من الأيام وصلت رسالة من طهران فاهتاج السفير عند قراءتها وأخذ يسب رئيس الوزارة ويلمته ، وقال إن هذا الخطاب من زوجته وإنها علمت بأن لديه جارية شركسية وإنها تؤنبه . وقال بصوت ملؤه الرقة : « لماذا تلومني وتؤنبني ؟ إن الجارية ستكون خادماً لها عند ما نعود إلى إيران . أليس يكفيها من العناية بها والحرص على رضاها أنني لم أجمع إليها زوجة أخرى ؟ » ثم عاد الفضب فاستولى عليه وصاح : « ولكن من الذي أبلغها ؟ هل يوجد هنا من يتجسس على ؟ » وأخذ يلعن الساعة التي عين فيها بهذا المنصب وغادر بلاده المحبوبة وزوجته وابنه

ومن بين المعادات التي اعتادها السفير شراء جريدة انكليزية كل يوم لأنه كان يجد بها أخبار انتقاله وأعماله . وكان بعضها يأتي محرراً في كثير من الأحيان فيفضب ويهتاج ويرسل تكديماً للجريدة . وكان يقول قبل أن يفتح الجريدة :

« سغرى ماذا قال عنى الكذابون اليوم »

وكان يقول : « لو أن شاهنا يطلع على هذه الأخبار فانه بنير شك سيقابلني بالقرعة والفاقة »

عند ما أعود إلى طهران

وكان من بين الأخبار التي كتبها تلك الجريدة

قال السفير : « إذن لماذا لا تصونون بعض ألفاظكم مثل كلمة « دام » التي سمعناها من كل انسان فقلتها للسيدة فضحكت مني ؟ » فلم يحمر المترجم جواباً ، ولكن عند انتهاء المحادثة صمم السفير على الاتفاق مع مدرس يعلّم اللغة الانكليزية ... وكذلك صممت تنفيذاً لأمر الشاه حتى أمكن في وقت قصير من ترجمة الكتب الانكليزية

وقد نصحننا المعلم بأن نتعلم اللغة اللاتينية أيضاً فقال السفير : « وما هي اللاتينية ؟ إننى لم أسمع قط هذا الاسم »

قال المعلم : « إن الانسان لا يعرف شيئاً عن العالم حتى يتعلم اللغة اللاتينية »

فغضب السفير وقال : « إن بلادنا من عهد جشيد تعيش بغير اللغة اللاتينية وقد أحرقنا قبور الروس مع ذلك »

قال المعلم : « إذا كنتم تجهلون اللاتينية فانكم تعرفون الفرنسية أو الايطالية فهما لغتان شائعتان » فقال السفير إننا لا نعرف الفرنسية ولا الايطالية ، ولكن عدداً قليلاً منا يعرف التركية أو العربية ؛ فأصر المعلم الفجى على ضرورة تعلم اللاتينية . ومن ذلك اليوم وضعنا له اسماً لتسخر به فدعواناه لانتباجى

الفصل السادس والثلاثون

السيدات الانكليزيات بمره السفير

مضى علينا عدة شهور في بلاد الانكليز واعتدنا كثيراً من عوائدهم ، فسكننا عند مايسير اثنان منا معاً لا يمسك أحدهما بذراع الآخر في الطريق لأن هذه العادة خاصة في انكلترا بالرجل مع المرأة . وامتنعنا عن الأكل بأصابعنا واعتدنا شرب الجمّة وامتنعنا عن

عنه أنه بضرب جاريته الشركسية »

وحدث في يوم من الأيام حادث مروع جدب بأن يكتب في قصة ألف ليلة . وذلك أنني كنت خارجاً من باب السفارة فقابلت سيدتين إحداها أكبر من الأخرى . وكلاهما جميلة جداً . ولكن الصغرى أجمل . وكان شكهما لا يدا على أنهما من الانكليزيات

تقدمت منى الكبرى وطلبت إلى في جراءة مدهشة أن أحجبها إلى منزلي أو منزلها لتقضي ساعة لحو . فتجاهلت الغرض وتباهلت ، ولكنها ألحّت على وأكدت أنه لا خوف من ذلك . وعدت بهما إلى غرفة الجلوس في دار السفارة وقدمت لهما الفاكهة والجمّة وتسامرنا . ولكن الصغرى كانت أجمل في عيني من الكبرى فحسبتهما بطفي ، وقد رأيت علائم الغيرة على وجه الكبرى وأنا خير بغيرة النساء في فارس ، ولكنني لم أرقطغيرة جنونية كثيرة هذه السيدة ، فلم أكد أقبل الفتاة التي أعجبت بها حتى انهالت على الكبرى بالضرب واللكم واللكز فأعطيتها ما ممي من القطع الفضية ولكن اللعينة رمت بها فكسرت المرأة . وأسرعت فخرجت من الغرفة ودخلت غرفتي الخاصة

وبعد قليل سمعت بواب السفارة يطلب المترجم ويقول له إن في غرفة الجلوس سيدتين غريبتين إحداها تبكي والأخرى تصيح فخرج المترجم وسمعت السيدة الكبيرة تقول له : « لا تخدعني فانك خلقت ذنك وجئت تتجاهلني »

وسمعت المترجم يطردها ويتوعدها بأن يرسل في طلب البوليس . فخرجت السيدة وعاد المترجم وسأله وأنا أنجاهل الحقيقة فأجاب بأن السيدتين

من البرتغال . وأفهمني أن الحقيقة لا تخفى عليه

ولما جاء السفير قال له المترجم ونحن موجودون إن لوندرا ليست مثل طهران ، فكل شخص في طهران معروف إلى حد ما . أما في لوندرا فالناس كثيرون وفيهم من يحصل على القوت بطريق غير شريفة وإنه لذلك ينصح لكل من في السفارة ألا يسمحوا بدخول أحد إليها إلا إذا قدمه المترجم

الفصل الثاني والثلاثون

الهرب الانكليزي

نسيت هذه الحادثة مريماً وكان كل يوم يمر يزيد السفير انصرافاً عن السفارة ومن فيها إلى معاينة الانكليزيات والانكليز . وقد كنا نمتقد أننا معشر الفارسيين أقدر الناس على الكذب . ولكن إقامتنا في لوندرا دلّتنا على أن الانكليز هم أكذب الناس حقاً . فن أمثلة كذبهم أن أحد تجار العربات أهدي إلى سفيرنا سوطاً جميلاً فقبله منه . وفي اليوم التالي وجدناه قد كتب على بابه وفي الصحف أيضاً أنه « متعهد لتوريد العربات إلى شاه إيران » وكنت مرة أمشي في الطريق مع محمد بك فررنا بتاجر دعانا وقدم إلينا جوارب ومناديل فلم نقبلها ولكنه ألح وأكرهنا على أخذها فأخذناها . ولما صرنا بخانوته بعد ذلك رأينا قد كتب أنه متعهد لتوريد للسفارة الفارسية ففررنا أننا لسنا وحدنا القادرين على الضحك على الذقون

وأرسل أحد المسارح دعوة إلى السفير ليحضر حفلة تمثيلية . فلما لم يردها وجدنا إعلانات كبيرة في الشوارع مكتوباً عليها بالخط المريض أن السفير الفارسي هو الذي اقترح تمثيل الرواية وأنه سيحضرها

خفيفاً إلى أن الفتيات سيصرن من أغنى السيدات في يوم من الأيام لأن لهن عمات وخالات كثيرات ولقد استكشفت من حديثها السبب في حرص الانكليز على المعاجز من نساين فأنها لما تكلمت عن زوجها لم تدع صفة من الصفات الحسنة إلا ونسبتها إليه بحيث لو اجتمعت فيه كل هذه الصفات لكان من الملائكة لامن الناس ، ووصفته بأنه غني كريم حسن الأخلاق يحب أبناءه وبناته . فقلت ماشاء الله وهو سمين أيضاً فما اسمه ؟

قالت : اسمه يا صاحب السعادة المستر « هوج » وهو من أسرة اسكوتلاندية عريقة

ولما كانت كلمة « هوج » في اللغة الانكليزية تعني « الخنزير » فقد كتبت ابتساي وقلت في نفسي : « لو كان هذا الرجل في فارس لكان اسمه « ميرزا خنزير » أو « خنزير خان » ولا بد أن يكون الخنزير محترماً جداً في هذه البلاد حتى سموا أبناءهم باسمه وقلت لها : « وما اسمك أنت ؟ »

فقالت : « كلنا من أسرة هوج . وقالت إن اسم ابنتها الكبرى « ماري » واسم الوسطى « ييسى » واسم الصغرى : « جسي »

ولما بدأ الفتيات يتكلمن معي أمطرنني وابلأ من الأسئلة . وكان بين أسئلتهن هل اليهود مضطهدون في فارس كما هم مضطهدون في روسيا ؟ وهل في طهران تمثال للاسكندر المقدوني . ومثل ذلك من المفارقات . وقد فتنني الفتاة الوسطى بحديثها الحلو وصوتها الرخيم

ولما أرخى الستار وبدأ الناس بنصرفون قدم لي المستر هوج تلك القصاصة من الورق التي عليها

وفي الليلة المحددة لتمثيل هذه الرواية أرسلني السفير مندوباً عنه في حضورها ، وقد تصادف أن المقصورة التي جلست بها تجاور مقصورة أخرى بها ثلاث فتيات وأمهن وأبوهن وكان هذا الأب مفرطاً في السمن وزوجته نحيلة جداً . أما الفتيات فانهن زاهرت يانعات من زهر الجلال

وتصادف أن يدي لست عن غير قصد مني يد إحدى الفتيات فكان ذلك داعياً للالتفات إلى والرغبة الشديدة في التعرف على

قالت الأم لها : « قدي إليه برتقالة » فجلت الفتاة وهي صفراء من وقدمت إلى برتقالة على استحياء . فقلت في نفسي هذه تحبة فارسية وقبلتها منها مع الشكر ، وشكرني الأب على قبولها وعدة ذلك مني ملاطفة وقال وهو يحسبني السفير : إنه يتمني توثيق الملائق بين انكلترا وبين إيران

فتظاهرت بأبهة السفراء وأجبت جواباً ملائماً . وقد انضح لي أن الرجل مشهور بوطنيته بين الانكليز . ثم سألتني هل في فارس مسارح وهل أعرف اللغة الفرنسية وهل أنا متزوج ؟ فأجبت على ذلك

ولما سمعوا مني أني لم أتزوج زاد اهتمامهم بي ولم تكف الأم عن النظر إلي ، وأخذت كل فتاة تمدل من ثيابها

قالت لي الأم : إن كبرى بناتها كريمة القلب تحب الفقراء ، وأنها تحوك الجوارب بيدها وتخبث الثياب وتعلم الأطفال ، وأن الفتاة الوسطى تجيد الرقص والعزف على البيانو وتتغنى الايطالية ، وإن الصغرى لاتزال في المدرسة ولم « تخرج من البيضة » إلى الآن — كما يقول الأتراك — ولحت تلميحاً

من غنية ، فالفارسيون يحرمون على التناسب بين أسرة الزوج وأسرة الزوجة خصوصاً بين الطبقات العالية . وفضلاً عن ذلك فاني لو تزوجت من فارسية غنية فاني لا آخذ مثل هذا المهر الكبير . والفتاة مع ذلك جميلة وفوق الجميلة ، وأنا لا أزال في ميعه الشباب فانا كفء لها ، ولا تزال لحيتي سوداء كأول يوم سميت فيه لحية . وإذا ظهرت فيها شعرات بيضاء فالحناء موجودة ، وما ينقصني إلا أن أتقن الكلام المسول باللغة الانكليزية كما أتقنه باللغة الفارسية

الفصل الثالث والثلاثون

أسرة الخنزير

سألت المترجم عن كل ما يلزمي من آداب الدعوة للولائم حتى لا أقع في مثل الغلطات التي طالما وقعت فيها منذ وصولي إلى انكلترا . وفي اليوم المحدد للدعوة ذهبت إلى ذلك المنزل وسألت البواب عن المستر هوج فأخبرني بأنه ليس في المنزل وبأن السيدات في انتظارى ، فمددت ذلك من حسن الحظ لأن دخول الحرم في إنكلترا بمثل هذه السهولة أمر لم يكن ليخطر لي يبال . وعدلت من ثيابي وأتقنت لبس القلب وسأويت شمري ثم صعدت فوجدت الفتيات وأمهن ينتظرنني ، واعتذرت لي السيدة عن جهل البواب لأنه لم يعرف أني ميرزا ثم قالت : « أليس لقب ميرزا عندهم هو لقب « برنس » عندنا ؟ لقد قرأنا ذلك في رحلات المستر قوير » قلت : إنه يخطئ حيناً ويصيب حيناً . فسألتني الفتاة الصغرى : « أليس لقب ميرزا هو لقب الأمراء ؟ »

فقلت : إن دولتنا دولة كل رعاياها أمراء . فان كلمة ميرزا إذا كانت قبل الاسم كانت لقباً بسيطاً

اسمه كما هي العادة عندهم وقال إنه سيورثني ومعه أسرته في اليوم التالي ...

لم يطل عهد ظنهم أني أما السفير لأن هؤلاء الانكليز يبحثون ويتساءلون . ولكن بحسبهم لم ينقص من مكانتي بل زادها كما سيظهر فيما بعد فقد علموا أن لقبى ميرزا وحسبوني لذلك أميراً . وبذل أن ينادوني في اليوم التالي بيا صاحب السعادة ساروا يقولون لي يا سمو الأمير

وفي صباح اليوم التالي وقعت عربتهم على باب السفارة . ودعوني إلى تناول العشاء عندهم في يوم بعيد من الشهر المقبل فقلت في نفسي هؤلاء أول قوم من الانكليز أراهم بمتقدون بالتنجيم وإلا فلماذا يحددون هذا اليوم البعيد ؟

ولم أشأ أن أعرفهم بالسفير لأنه شديد الغيرة وقد كنت أعرف أنه من حق اختيار أصحابي . ولكني لمعرفتي باخلاقه من جهة ، وحرصاً على ألا يرى المستر هوج وبناته خضوعي أمام رئيسي آثرت ألا أعرفهم به . والحق أن الانكليز يجهلون تمام الجهل هذا الخلق فينا ، فان أحدهم لا يتكلف في الوقوف أو الكلام أمام وزير أو أمير ، ولكننا نحن الفارسيين نقف بشكل مزر أمام من هو أرق منا ولا يستطيع الصغير ذوالكرامة أن يغير هذا الطبع لأن رؤسائه يتطلبونه وأقرانه لا يعذرونه

ومن العادات الغريبة عند الانكليز أن العروس هي التي تدفع المهر وأن مهرها في العادة أضعاف ما يدفعه الرجل عندنا لعروسه . وقد أخبرتني زوجة المستر هوج بأن مهر إحدى بناتها ثروة طائلة

قلت : لماذا لا أكون أول اصغها في تزوج من انجليزية ؟ إنني إن تزوجت في إيران فلن أتزوج

قلت : « ليست المناقشة سهلة خصوصاً مع المسيحيين في إيران ، فهم ليسوا مثل المسيحيين في هذه البلاد بل هم أناس في نهاية القذارة والشراسة ؛ وأقفر فقير من المسلمين في إيران خير من أغنى غنى من المسيحيين فيها

ثم قات : « إذا جاء الملك جورج إلى فارس وفتحها وألزم أهلها أن يكونوا مسيحيين فقد يصيرون كذلك . أما إذا جاء بادري وجده وأراد أن يجعلهم مسيحيين فانهم يرجونه . وليس يتم شيء في فارس إلا بالسيف »

قالت : « لقد أرسلنا عدداً كبيراً من الأناجيل إلى فارس ولا بد أن يكون لها تأثير بين أهلها فقالت : إن الأناجيل كتب طيبة ، والفارسيون لا يقولون كلمة واحدة ضدها ؛ ولكن القرآن الشريف أحسن منها ؛ والمسلمون يمدحون نبيكم فلماذا لا تمدحون نبينا أيضاً ؟ »

قالت ماري : « إننا سنجملك مسيحياً قبل أن تفارقنا . هل زرت الكنيسة الانكليزية قبل الآن ؟ قلت : « إنني لم أزرها ولا أجرؤ على دخول معبد لآناس بخالفون ديني خشية أن أعامل معاملة سيئة ، لأنه لو دخل أحد المسيحيين في مسجد من مساجد إيران لما خرج منه سليماً . ولست أشك في أنني أعامل هذه المعاملة لو دخلت الكنيسة في بلاد الانكليز

فأكدت لي ماري بأن الكنائس مفتوحة الأبواب في أوجه النصراري وغيرهم على حد سواء . وألحت علي في الذهاب معها إلى الكنيسة في اليوم التالي فوافقت على ذلك

وعاملتني الأم معاملة حسنة جداً في ذلك اليوم

وإذا كانت بعد الاسم كانت لقب الامارة وعلى الرغم من هذا الايضاح فانهم أصررن على مناداتي بلقب « سموكم » ولا أعرف لماذا تشبهن بآني أمير . وقد سألت صغراهن عن أبيها فقالت : إنه مسافر وسيمود في السماء وإن من عاداته أن يفعل ذلك كل يوم . فقلت : بظهر أنه تاجر وهذه عادة التجار عندما أيضاً ، ولكن هل المستر هوج يبيع لحم الخنزير ؟

عند ذلك بدا الغضب على وجه السيدة وقالت : ما الذي دعاك إلى أن تظن هذا الظن ؟

فقلت : إن التجار عندما يلقبون بما يبيمون في بعض الأحيان . ثم تبينت شدة سخطها ، فحاولت إصلاح غلطتي وقلت : إن التجارة ليست عيباً عندما فهل هي عيب عندكم ؟ إنني لأعرف عادات البلاد ، وإنني أسير هنا بغير دليل ، وإذا لم يكن زوجك تاجراً فما هي صناعته ؟

قالت : إنه مدير شركة الهند الشرقية . فوجدت الفرصة مناسبة كل المناسبة لإصلاح غلطتي خصوصاً أمام الفتيات وقلت : لعله من ملوك الهند ؟ فابتسمت وقالت : « إننا لا نسمى مديري هذه الشركة ملوكاً ولكنهم في حكم الملوك

وسألتني ماري : هل في بلادكم مبشرون من الانكليز ؟ فحمدت الله على تغيير الموضوع الذي كنا نتكلم فيه وقلت : نعم لقد كنت أعرف فيها رجلاً يدعى بادري وهو يقول : إن نبينا غير نبي ، وإن البابا رجل كذاب . وقد رجى الفارسيون وأظنه فر من بلادنا »

فقلت : « لقد أساء الذين رجوه ماذا ؟ أليس هناك مجال للمناقشة ؟

والاستنشاق والمضمضة وقص الأظافر . فتلك كلها أمور دينية متروكة الضميرى

وقبل أن ندخل الكنيسة مع مارى تمرفت على أخيها الأ كبر و قابلت أباه . ودخلنا الكنيسة جميعاً نساءً و الرجال . وما كان أشد الحاجة فى المعابد إلى وضع براقع على وجوه النساء لأنه يستحيل مع كثرة عددن ألا تتجه إليهن الميون فى وقت الصلاة . ولقد كان من المحال على أن تمر لحظة لا أزود فيها وجه ييسى بنظرة

وفى أثناء الطريق دفعت إلى مارى بكتاب أسود لأقرأ فيه الصلاة وقد فهمت منه أجزاء وفى أوامره ونواهيه ما يشبه الأوامر والنواهي التى فى القرآن ، ولكن النصارى لا يحفظونه عن ظهر قلب كما نحفظ نحن كتابنا المقدس بل يفتحونه ويقرأون فيه وهم يصلون ويحسبون صلاة مثل هذه يقبلها الله ... وصعد المنبر شاب صغير ثيابه كثياب الناس جميعاً وهو حليق اللحية والشاربين فقلت فى نفسى كيف يتعظ الناس من قول أمرد كهذا؟ إن الخطيب عندما يجب أن يكون أبيض الشعر محدودب الظهر ليصنى الناس إلى كلامه وليضعوا رأيه فى موضع الاحترام . وقد بطل عجبى عندما رأيت هذا الخطيب الناشئ يفتح كتاباً ويقرأ لهم فيه حتى تنتهي خطبته وهو لا يهز رأسه يمنة ولا يسرة ولا يمسك سيفاً . وقد ظهر لى فى جلاء أن المصلين وأمامهم هذا غير جادين وليس فى صلاتهم شىء من الاهتمام . فقلت ليتهم يذهبون إلى فارس ليروا كيف يكون احترام الدين . فأنهم هنا يجلسون على الكراسى الفاخرة على الوسائد الحريرية ويلتفت أحدهم فى أثناء الصلاة كما يشاء إلى اليمين أو اليسار أو الخلف ولا يعرف إن

وفى الزيارات التى توالى بعد ذلك . وكانت ييسى التى طالما التقي نظرها بنظري تقول لى باللغة الفارسية الفصحى : « خودا حافظ شوما » فأطرب لهذه التحية وترجتها « أنت فى حفظ الله »

وأخبرتني الأم بأن بناتها منذ قابلتنى فى المسرح لم يفكرن فى شىء غيرى ، وإن أكبر أمانى مارى الآن أن تجعلنى مسيحياً ، وأن بسى قد خطت خطوات فى اللغة الفارسية ، وإن « جسى » أصبحت لا تعنى بشىء مثل عنايتها بالتاريخ الفارسى وقد سرتنى هذه الأخبار كل السرور وشجعتنى على الأمل فى صحبتهن . وكنت كلما خرجت من عندهن أقول فى نفسى : « الله أكبر ! » إنهن اسن سيدات فقط ولكنهن يصلحن أن يكن وزراء . أم كيف يتأتى للمرأة فى بلادنا أن تفكر فى دينها وأديان البلاد الأخرى ؟ وكيف يتأتى لواحدة منهن أن تدرس لغة أو تاريخاً لأمة أجنبية ؟

الفصل الرابع والثلاثون

ماجى بابا فى الكنيسة

فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى منزل صديقاتى ، وكان اليوم يوم جمعة الانكليز وهو يوم الأحد ، وكانت الأجراس تسمع فى كل مكان ؛ والشوارع مزدحمة بالذهابين إلى الكنيسة على اختلاف درجاتهم وأعمارهم . وقالت مارى ونحن فى الطريق إن الحكومة هى التى تدير الكنائس فعمجت وقلت إن شاهنا وإن كان مستبدأ فلا سيطرة له على المسجد ولا يستطيع أن يضطرنى إلى الزيادة من الاستغفار أو التقليل من قراءة الفاتحة ، وليس له أن يتدخل فيما بينى وبين ربى من غسل اليدين والرجلين ومسح ريع الرأس

وأخذ يتفلسف في حكمة التجارب، وحاولت تغيير هذا الموضوع لأتكلم في أي موضوع آخر تحبه ييسى ولكن (ماري) أو (الشيخ ماري) كما تستحق أن تلقب كانت تأتي أن يخرج الموضوع عن الدين

وقد سألتني الأم عما إذا كنت أعرف السيدة فلاة أو غيرها من سيدات الطبقة الانكليزية الراقية، وعما إذا كنت أدعى إلى حفلات الرقص في بيوت السفراء والوزراء. وفهمت من أسئلتها أنها تريد أن تعرف وتشتهر في تلك الأوساط وأن أكون الوسيط بينها وبينهم. وطلبت إلي أن أعرفها بالسفير فوعدها بذلك على غير إرادتي وإن كنت أعرف أنه الوسيلة الأولى للتقدم نحو البيوت الراقية

الفصل الخامس الثلاثون

شركة الهند الشرقية

عدت إلى دار السفارة فوجدت السفير يتأهب لزيارة رسمية ليؤديها في اليوم التالي. وهذه الزيارة في قصر الشركة الهندية وهو واقع في جزء بعيد عن المدينة، وفي هذا القصر كل الأموال التي ادخراها أمراء الهند والصين ومرنديب في عصور متعددة. وقد أمرنا السفير بأن نتأهب جميعاً لهذه الزيارة. واختار الهدايا اللازمة بهذه المناسبة ومن بين هذه الهدايا ديوان شعر نفيس من نظم جلالة مولانا الشاه

وقد كنا نعرف أن ملوك الهند السابقين هم حماة الشعر وأنصاره فلا بد أن يكون خلفاؤهم المحدثون على غرارهم. وكذلك جعل السفير من بين هداياه هذه صورة كبيرة مرصعة بالؤلؤ وهي من صنع محمد ناجي الشيرازي أكبر مصوري فارس في

ذلك يؤدي إلى الخروج من الصلاة. ونحن في فارس نجلس كنا على حصير واحد سواء منا الفنى والفقر ونولى وجوهنا وجهة واحدة ونخضع لله كما ينبغي أن يكون الخاضع له سبحانه؛ وفي صلاتنا ركوع وسجود، أما هؤلاء فصلاتهم جافة جافية كأنهم يعاملون الله معاملة الند للند. وهم لا يتوضأون قبل الصلاة، ولكنني فهمت أن لهم قبة كما لنا قبة وإن قبلتهم شطر بيت المقدس

وبعد أن أتم الخطيب تلاوة خطبته المكتوبة أنشد المصلون نشيداً كالذي ننشده نحن عقب صلاة العيد. ثم انفض الجمع وخرجنا، وكنت شديد الاغتراب بمخروجي سالماً لأنني لو كنت مسيحياً وحضرت مثل هذه الصلاة في معبد إسلامي لحدت الله على خروجي دون أن تتكسر عظامي. ولكن الأمر هنا على النقيض، فالتناس لم يروا في وجودي بالكنيسة عند أداء الصلاة أقل مانع. ولو أن الدين لم تسبق لهم رؤيتي بشيبي الفارسية استغربوا هذا الشكل

ولم تدع زوجة المستر هوج وسيلة مباشرة أو غير مباشرة لإفهام الناس أنني أمير إلا فعلتها ولما خرجنا من الكنيسة قالت لي:

«مارأيك في كنانسنا يا سمو الأمير؟»
فقلت: «لا بأس بها سوى أنكم لا تبدلون أقل عناية في الصلاة»

قالت: «فأهو رأيك في الواعظ؟»
فقلت: «هو جميل والنظر إليه يبعث السرور، ولكنه لا يصلح للوعظ؛ ولا يقبل وعظ ممن هو في عمره ولو نصح الناس بحكمة سليمان وفقه الامام أبي موسى الأشعري

وقد واقفني المستر هوج على هذه الملاحظة

كما لو كان الشاه نفسه موجوداً فسجد وسجدنا جميعاً وكنا ننتظر أن يجذو أعضاء الشركة جذونا ولكنهم لم يتحركوا وأخذوا ينظرون إلينا نظرة استغراب

ولما تم تقديم الهدايا أخذنا بعض أعضاء الشركة إلى الغرف الأخرى ومنها مكتبة عامة فيها أحسن الكتب التي وضعت باللغة الهندية وتاريخ الهند باللغات المختلفة . وفي هذه المكتبة سيدات مختلفات ورجال وبينهم زوجة المستر هوج وبناته ؛ وقد أردت في بادئ الأمر أن أختفي وراء واحد من أصحابي حتى لا يريني ولا يسلن علي فاستترت غيرة السفير ضدي ، ولكنني وجدت هذه الطريقة غير مجدية ، وجاءت الأم فصاحتني . ولحسن الحظ لم يرنا السفير عند ذلك ولكن سائر زملائي دهشوا

وقد طلبت إلي هذه السيدة أن أعرفها بالسفير الآن . فاعتذرت في كلمات مقتضبة بأن هذا لا يتفق مع عواندنا فأظهرت الاقتناع وتركتني مؤقتاً وكان يدير هذه المكتبة رجل هرم قالوا إنه

عالم كبير . وقد فهمت أن الكتب التي فيها تقدر بمئات الآلاف من الجتهات ، وفيها قسم للآثار به سيوف ودروع وثياب ونفائس مما جمعه الانكليز في حروبهم مع ملوك الهند القدماء ، وفيها سيف لقائد تركي بحري يقال له قبودان باشا . وقلت للمستر هوج : « ماشاء الله ! إذا كان شركتكم قد تفلتت على كل هذا الممدد من ملوك الهند فهي ليست شركة إذن ولكنها حكومة من أقوى الحكومات

وجدت بين الرجال شاباً ذا شارب قصير ينظر إلى حبيبتى ييسى نظرات تكاد تقضى على كل آمالي في الزواج منها والحصول على الثروة من مهرها ، وبدأت أشك في أن لحيتي على كثرة ما فيها من

هذا المعصر . وهذه الهدية ثمينة حقاً وهي أجل حتى من شعر الشاه

لبس السفير جبة عليها رسم الزهور بخيوط من الذهب وتقلد سيفاً مقبضه من العقيق وتعمم محمد بك بشال من الكشمير وتمنطق بحزام أحمر ؛ وكذلك ظهر كل منا بأحسن مظهر . ثم ركبنا العربات إلى ذلك القصر العجيب الذي يكاد يكون كمدينة من مدنا وقد كان في حديقته شوارع تجري فيها العربات وهي مزودة بالناس مثل ازدحام مدينة لوندرا . وبين باب المدينة وباب البناء الداخلي صفوف من أعمدة المرمر لم تر عيني شيئاً لها . وكان القصر مزداناً بمناسبة قدومنا . وفي الشوارع التي في الحديقة جنود مصطفة تصدح بموسيقاها .

استقبلنا في هذا القصر أناس بالنيابة عن الحكومة ودخلنا غرفة فيها أربعة وعشرون رجلاً على مقاعد مذهبة ، وقيل لنا أن هؤلاء هم أعضاء الشركة التي تحكم الهند ، ووجدنا مقعد رئيسهم أعلى من سائر القاعد . وحياء السفير وقدم إليه الهدايا

وكانت أولى الهدايا ديوان شعر الشاه . فلما سلمه السفير التفتت كل العيون ، ولكن سرعان ما سمننا الأعضاء يتهايمسون : ليس هذا إلا كتاباً

وكنا ننتظر أن يضع الرئيس الكتاب على رأسه ويقبله ، كما نفعل نحن في مثل هذه الحالة . ولكنه أخذه في صمت ثم أحنى رأسه ثلاث مرات . وانتقل الكتاب من يد إلى يد حتى رأوه جميعاً

وقد امتعض السفير من ذلك وقلنا في أنفسنا بقران الشاه كان يعلم أن كتابه سيقابل هذه المقابلة لما ألف بيتاً واحداً من الشعر

ثم كانت الهدية الثانية هي صورة الشاه وقد رأى السفير أن الواجب يقضى بالسجود أمام هذه الصورة

الشاه وإن كان كلانا لا يعرف هذا العدد . وألقوا
على من الأسئلة ما عجزت عن الإجابة عنه . ولست
أعرف كيف حصلوا على كل ما لديهم من المعلومات
قلت : « أما الذين عرفتهم أنا فقد ألقوا على »
من الأسئلة ما ينجل حمار الصحراء من إلقائه . وقد
سألني أحدهم : ألسنا نعيد البقر ؟ ولما استنكرت
سؤاله سألني : أليس الفارسيون هم الفرسيس في
الهند ؟ وقال لي رجل آخر : إن بطلنا الفارسي
« تاحاس كولي خان » كان رجلاً إيرلندياً وحقيقة
اسمه « توماس كاليجان » وإنه هو المعروف في التاريخ
باسم « نادرشاه »

فقال السفير : « لقد يكون فيهم جهلاء ولكن
أمين المكتبة الذي رأيته اليوم لا نظير له بين علماء
فارس . وقد قرأ من الكتب ما لم نحو مثله مكتبة
الشاه . وأخبرني المترجم بأنه يعرف عشر لغات
أجنبية

وقال محمد بك : « ولكن علماء بلادنا أكثر
اطلاعاً منه ومعرفة . فهذا الميرزا الانكليزي لا يعرف
شيئاً على الاطلاق في علوم الحديث والفقه والأصول
والفلك ؛ ولم أسمع عن انكليزي واحد يستطيع
استخراج الطالع من رصد النجوم

فنظر إليه السفير نظرة طويلة وقال : « ما الذي
يهم هذا العالم من علوم الحديث والفقه والأصول
ما دام كافراً ؟ لكنه يعرف مقابل تلك العلوم ما يتعلق
بدينه . وهل من علماء إيران رجل واحد يستطيع
أن يتكلم بعشر لغات أجنبية ؟ »

قال محمد بك : « وهل عرفت يا سماعة السفير
انكليزياً واحداً يحفظ أحاديث النبي عليه الصلاة
والسلام ويميز بين الصحيح منها والضعيف مثل
الحاج محمد مجتهد مدينة قم ؟ »

الشعرات الطويلة وسوالفي الممتدة كالغدير أفضل
لدى الفتاة من ذلك الشارب المقصوص

ورأيت في حداثي ذلك الشاب مهمازين من
النحاس ولكنه لا يرتدي ثوب ضابط عسكري
فأيقنت أن المهماز وسيلة لاستجلاب هواها
وطفتنا بسائر الغرف والأقسام في هذا البناء
المتعدد الأجزاء . ولما آن أوان انصرافنا دنت مني
بيبي وقالت لي : لا تنس أن تتعشى عندنا غداً
يا سمو الأمير

فسمع السفير هذا اللقب وقال لي ونحن في
الطريق : كيف تدعوك تلك الفتاة أميراً ؟

قلت : « لا أعلم لي ولكن يظهر أن كلمة ميرزا
لا تفهم عندهم إلا بمعنى الامارة

الفصل السادس والثلاثون

أخبار من فارس

لما وصلنا إلى دار السفارة اجتمعنا حول السفير
كالعادة في الديوان وأخذنا نتحدث عما رأيناه فقال
لي : « ما الذي رأيته اليوم يا حاجي بابا ؟ إنها اشركة
مجبية حقاً فهي كرايك فيها حكومة من أقوى
الحكومات ، وأرى واجبنا يقضى بأن نكتب إلى
الشاه عن كل ما علمناه من أمر تلك الحكومة

قلت : « على العين والرأس يا سماعة السفير ،
ولكنني لست أكتمك أن رجلاً واحداً من رجالنا
أعقل من هؤلاء الأربعة والمشرين مجتهدين إن كانوا
كاهن مثل ذلك الرجل السمين الذي تعرفت عليه من
وقت قريب . فقال السفير : « ربما كان هذا
الوصف منطبقاً على من عرفته أنت منهم ، أما الذين
عرفتهم أنا فجديرون بالسيادة على العالم كله لا على
الهند فقط ، وهم يعرفون عدد الشعرات في لحية

بفتح فارس كما فتحوا الهند بواسطة شركة تجارية !
ولم أكد أنهم جلتي حتى جاء رسول من قبل
وزارة الخارجية يحمل إلينا خطابات من قبل الشاه
الفارسي ، فتسلم سفيرنا الرسائل وسكتنا منتظرين
اطلاعنا على ما فيها

ولما فتح السفير إحدى الرسائل صاح : « الحمد
لله ! الحمد لله ! لقد مات عدونا اللدود « ميرزا شافعي »
رئيس الوزارة الفارسية »

ثم قام السفير إلى ركن من الغرفة وسجد لله
سجدة الشكر

واضطربنا صراخاً له أن نقول : الحمد لله ! الحمد لله !
مع أني كنت في حاجة للبكاء في تلك الساعة لأنني
كنت مستظلاً بمجايبته ، ولأن معاملة السفير لي
ستغير طبعاً بعد الآن

ولما فرغ السفير من صلاته أطلق لنفسه العنان
في إظهار الفرح وظل طول اليوم لا يفكر في أمر آخر
وهو بين لحظة ولحظة يقول : لقد مات ميرزا شافعي !
و كنت أفكر في مستقبل بعد تلك النكبة

فأفحسر . ولقد دلت التجربة على أن معاملة السفير
لي تغيرت تغيراً كلياً بعد وفاة رئيس الوزارة . فقد
كان من قبل يعاملني بشيء من الاحترام . أما الآن
فانه يهزأ بي . ولقد قال لي مرة : « إن أباك قد مات ،
لقد مات هذا الكلب القذر ! ولكن لحسن حظك
كنت موجوداً معنا في هذا الحين . فان الشاه صادر
أملاًكه وباع عبيده وجواريه ؛ ولو كنت هناك لباعك
أيضاً » فقلت له « أرجو ألا يحرمني الله نعمته رضاك »
قال لي : « إذهب وكن مطمئناً فقد عفونا عن
الماضي ولستنا نجعل لحانا ذات لونين »

فاحتد السفير وقال : « ألم أقل لك أيها الأحمق
إن الانكليز مسيحيون وإن لهم ديناً غير ديننا
يعرفون أحاديثه وأسانيده ؟

فهز محمد بك كتفيه واستمر السفير يقول :
« هل علمت أن المجتهدين في فارس يخرجون من
بلادهم ليقيموا أبناء الديانات الأخرى باعتراف الدين
الاسلامي كما يفعل المبشرون الانكليز الذين يطعمون
كتبهم ويوزعونها على الناس بنير مقابل ويحرصون
على تلقين الناس إياها ؟ هل تعلم أن الانكليز ترجوا
القرآن إلى لغتهم وعرفوا من علوم المجتهدين ما ليس
يعرفه المجتهدون أنفسهم ؟ »

فتدخلت في الحديث وقلت : على كل حال فهذه
أمة نالت مكانة مدهشة من الثروة والقوة والمعرفة
فضحك السفير وقال : « هل تعني حكومة
الانكليز أم حكومة شركة الهند الشرقية ؟ » فقلت
« أقسم برأسك يا سمادة السفير أن شركة الهند
تدعو إلى الخيرة أكثر مما تدعو إليها الحكومة
الانكليزية نفسها »

قال السفير : « نعم لقد صدقت يا حاجي بابا فاني
لا أعرف كيف تمكن الأربعة والمثرون انكليزياً
من إخضاع الهند الواسعة ! ولا أعرف كيف صارت
مدينة أجرا أو مدينة دلهي العظيمتان خاضعتين
للبناء الذي كنا فيه اليوم . ولست أعرف كيف زال
ملك المغول أمام بناء الشركة في شارع « ليدن
هول ستريت »

فقلت : « هذا مدهش حقاً يا سمادة السفير
وأرى أن نكتب للشاه أن يأمر بتحسين البلاد
وتقوية الحدود لأنه من يدرى ربما قامت شركة أخرى